بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة 28-10-2011م الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

((سياسة الباب المفتوح))

الحمد لله.. الحمد لله ثم الحمد لله..

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خير نبيٍّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله.

أرسله ربنا بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كلّه، ولو كَرِه الكافرون، ولو كَره المشركون، ولو كَره مَن كَرِه، اللهم صلّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد.. فيا عباد الله: أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإياي على طاعته وأستفتح بالذي هو خير :

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105].

وقال سبحانه: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:9].

عَنْ أَبِي الشَّمَّاخِ الْأَزْدِيِّ، عَنِ ابْنِ عَمٍّ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَتَى مُعَاوِيَةَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: **سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ((مَنْ وَلِيَ أَمْرًا مِنْ أَمْرِ النَّاسِ، ثُمَّ أَغْلَقَ بَابَهُ دُونَ الْمِسْكِينِ وَالْمَظْلُومِ أَوْ ذِي الْحَاجَةِ، أَغْلَقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دُونَهُ أَبْوَابَ رَحْمَتِهِ عِنْدَ حَاجَتِهِ، وَفَقْرِهِ أَفْقَرُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا))** [أحمد] وفي

رواية الترمذي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من إمامٍ يُغلق بابه، دون ذي الحاجة والخَلَّة والمسكنة، إلا أغلق الله أبوابَ السماء دون خَلَّته وحاجته ومسكنته))

وفي رواية أبي داود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمُ، احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ))، قَالَ: فَجَعَلَ معاوية رَجُلاً عَلَى حَوَائِجِ النَّاسِ.

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة التاسعة في سلسلة "قرأت في كتاب"، أختار لكم فيها فوائد منثورة في كتب قرأتها أو بعضها، ليفيد المرء علماً وعملاً.

عنوان خطبة اليوم:

(سياسة الباب المفتوح)

قرأت في كتاب عنوانه (**مقدمة في الإدارة الإسلامية**) للدكتور أحمد المزجاجي -دكتوراه في الإدارة العامة، من جامعة فلوريدا بأميركا، وعضو هيئة التدريس بكلية الاقتصاد والإدارة في جامعة الملك عبد العزيز- فصلاً عن الرقابة وأهميتها في الوظائف العامة والخاصة، قال فيه:

(إن انعدام عنصر الرقابة والمساءلة يجعل الموظف لا يأبه مطلقاً بالعمل المكلَّف به، ولا يعطي اهتماماً لأنظمته، ولا وزناً لنتائجه، ولا عناية بمن يتعامل معه من الجمهور، لأن من أَمِنَ العقاب أساء الأدب، وهذا بالتأكيد يمهد الطريق إلى ضياع الذمم وسهولة الاختلاس، فتُنْتَهَك الحقوق وتُمْتَهَن الواجبات، وتتعثر الأولويات، وتتغلب الأهواء والمصالح الشخصية، فيتحقق الثراء السريع من قوت الشعب المغلوب على أمره).

وقَسَم المؤلف الرقابة في الإدارة الإسلامية إلى ثلاثة أنواع [ذاتية- وإرادية- وشعبية] فَهِمَهَا من قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:105].

قال: وكأن الآية تقول: باشروا أعمالكم واعلموا بأن الله سيرى عملكم -فهي الرقابة الذاتية-، وهي شعورُ الموظف النابعُ من إيمانه بأن الله يراه وسوف يحاسبه على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم تنتقل الآية إلى نوع آخر من الرقابة حين تقول: ﴿وَرَسُولُهُ﴾، وهي الرقابة الإدارية حيث إنه النبي والقائد في آن واحد، والنبوة انتهت بوفاته صلى الله عليه وسلم، أما قيادة الأمة ومسؤوليتها فمستمرة فيمن يعقبه من ولاة الأمر.

ونوع ثالث من الرقابة حين تقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وهي الرقابة الشعبية، رقابة الأمة على الحاكم وأعوانه في جهاز الحكم والإدارة).

ثم راح المؤلف يبسط القول في هذه الأنواع من الرقابة الذاتية والإدارية والشعبية ويتحدث في تفريعات علمية وعملية للأخيرتين.

وعندما تحدث عن أهم الوسائل في الرقابة الإدارية تحدث عن تخصيص عمال لمراقبة الولاة، وعن العمل بإقرار الذمة المالية (من أين لك هذا؟)، وعن اللقاءات الدورية بالرعية، وتحدث عن وسيلة سماها:

(سياسة الباب المفتوح)

(OPEN DOOR POLICY)

وأحب أن أقرأ عليكم شيئاً مما ذكره هنا، قال: (وهو أسلوب رقابي يقضي بتسهيل اتصال الناس بالمسؤول دون أي عائق لبثّ شكواهم، ورفع مظلمتهم، أو التصريحِ بآراء تهمّ هذا المسؤول، وقد أسس هذه السياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

((مَنْ وَلاَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَّتِهِمْ وَفَقْرِهِمُ، احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وَفَقْرِهِ)) [أبو داود].

وسار من بعده على نهجه -الخلفاء الراشدون- حيث كان عمر رضي الله عنه يحذّر ولاته وعمَّاله من أن يتخذوا حُجَّاباً يمنعون الناس ويغلقوا أبوابهم دون قضاء حوائجهم وما يصلحهم ، وتلقي ملاحظاتهم على طريقة معاملة موظفي الدولة لهم، ومساعدة من يستحق المساعدة).

جاء في تاريخ الرسل والملوك للطبري والكامل في التاريخ لابن الأثير: (بلغ عمرَ رضي الله عنه أن سعد بن أبي وقاص بنى لنفسه قصراً في الكوفة، وجعل دون الناس باباً يحجبهم، فدعا عمر محمد بن مسلمة وقال له: "اعمَدْ إلى القصر حتى تحرق بابه، وادفع هذا الكتاب إلى سعد، ثم ارجع عودك على بدئك".

فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً، ثم أتى به القصر فأحرق الباب، وأتى سعداً فسلمه الكتاب: "بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً، فليس بقصرك، ولكنه قصر الخَبَال –أي: قصر الفساد-، انزل منه منزلاً مما يلي بيوتَ الأموال وأغلقه، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله، وتنفيهم به عن حقوقهم، ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت").

يقول المؤلف:

(إن سياسة الباب المفتوح أسلوبٌ رقابي تتميز به الإدارة الإسلامية عن غيرها، إذ إن الفكر الإداري الحديث لا يعرف نمطاً رقابياً مثلَها، صحيح أن الإدارة الغربية الحديثة تعرف أسلوباً يسمى (THE OMBUDS MAN) أي: المحقق في الشكاوى ضد موظفي الدولة، وهذا يعني أنه موظف حكومي مكلَّف بتلقي الشكاوى ضد الحكومة ورفعِ تقرير عنها.

إلا أن الفارق بين هذا وبين سياسة الباب المفتوح واضح جداً، ولا يوجد وجه للمقارنة بينهما، حيث لا اتصال بين الحاكم والجمهور في النمط الغربي إلا من خلال مكتب (THE OMBUDS MAN) الذي لا يرفع كامل الأوراق، أو يكتب تقريراً مغايراً للمعلومات التي تصله من الجمهور، بينما الاتصال في الإسلام مباشر بين الحاكم والمحكوم، لا يعيقه عائق، ولا يمنعه مانع، وبما يحقق العدل للجميع.

إن الإدارة الإسلامية سبقت الفكر الإداري الحديث في استخدام هذه الرقابة وغيرِها بقرون، وإنه لا يزال في الإمكان استخدامها اليوم بكفاءة أعلى وفاعلية أكبر من خلال توظيف التقنية الحديثة لتوفير أكبر قدر من المعلومات في أسرع وقتٍ ممكن، وذلك بقصد تحقيق متابعةٍ أفضل على كافة النشاطات الإدارية المركزية وغير المركزية الخاصة بالجهاز الحكومي).

أيها الإخوة:

هذا شيء مما قرأته عن سياسة الباب المفتوح في الإدارة الإسلامية.

أخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**يقول الله عز وجل: وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببتُ من طاعتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.**

وما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببتُ من طاعتي ثم تحولوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلا تحولتُ لهم عمَّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي)). [ابن مردويه وابن كثير]

والحمد لله رب العالمين